

صلاة عصر في مسجد قرطبة

عام ١٣٦٨ هـ

للدكتور محمد موسى

منذ فرغت من عملي في « السوربون » وأنا أحلم بزيارة
للأندلس أرى بها العقل بالتنقيب في مكتبة « الأسكوريال »
والروح بالعيش فترة من الزمن في الأرض التي ذلها أجدادنا
وقامت فيها عواصم للعلم والسياسة في الإسلام . وكانت كل
ما شاهدت من مدريد إلى اشبيلية حيث أنا الآن يؤكد لي أن
أسبانيا بلد ليس بالغربي ولا بالشرقي ، بل هويين بين . هوحقائين
الشرق والغرب بما احتفظ من تقاليد الأول وعاداته ، وبما تمكن
فيها عن الآخر من المسيحية التي تتمصب لها تمصباً شديداً ؛
والأرض نفسها تمثل هذا أيضاً بما تنبت من الزيتون والنخيل
وقصب السكر والموز ، إلى جانب مزروعات الغرب التقليدية .

لكن قرطبة عاصمة الأسراء والخلفاء شيء غير هذا كله .
لقد كان القطار يسير في من مدريد وأنا في شغل عما حولي !
كنت أعيش بخيالي وعاطفتي في قرطبة الإسلام ، في قرطبة التي
صارت مقبرة لعصر من أكبر المصور الإسلامية ازدهاراً ، في
قرطبة عبد الرحمن الداخل وأعقاب الأماجد ، في قرطبة ابن رشد
وكبار العلماء الإسلاميين . لقد استبدت في الخيال ، وأسرنتني
الماطقة حتى خلتنى مقدماً على بلد إسلامي يموج بملء الإسلام
موجاً ؛ ولكنني وصلت إليها ، فإذا الأهل غير الأهل ، والوجود
غير الوجود ، وإذا المعجزة والمسيحية هي الحاكمة المستبدة في
كل شيء !

وأخيراً ، ها أنذا في المسجد الذي يمثل الشيء الوحيد الحري
بالزيارة في المدينة : هذا هو « صحن البرتقال » بمجم حلقات العلماء ؛
وهذا هو « الأوان » أو الدهليز الميني حيث مجلس ابن رشد
يشرح أرسطو ويقره للناس ؛ وهذا هو الدهليز الشمالي حيث
كانت تقام المدالة وتفصل الخصومات ؛ وبعد هذا ما هو ذا
المسجد نفسه الذي يحس الرء فيه بقبس من الخلود ، حيث كان
العلماء من المسلمين واليهود والنصارى يتدارسون لغة واحدة هي
العربية ، ويتعلمون ويعلمون علماً واحداً هو العلم الإسلامي كما
ينقل « ربنان » كل ذلك ذهب وصار تاريخاً بعد أن كان

حقيقة عملاً الأذن والبصر !

وفي وسط المسجد أقيمت الكاتدرائية ! إلا أنها على ضخامتها
لم تنال من الأثر الإسلامي الخالد حتى كأنه لا يحس بها ! ومنارة
المسجد التي تذهب إلى السماء ناحية الأرياء والخلود ، نحواً من
خمس وستين متراً جعلها التمعيب برجاً للكنيسة بمسا أقيم
في جنباتها من نوافيس وما علاها من الصليب . إلا أن كل هذه
الظاهر لم تنزعني من الجو الذي أعيش فيه ، حتى لقد صمدت
النارة وأذنت فيها بصوت سمعه من كان ممي للعصر ، ثم أدبت
الصلاة في داخل المحراب بعد أن فتحت لي خاصة ! وأظن أن رفيقي ،
وهو أستاذ فاضل مستعرب قرطبي ، ظن بي الظنون ! وعلى كل
فقد احترم عاطفتي ووقت هو وآخرون من المتفرجين على مبعدة !
وبجوار المسجد مقر الخلافة والخلافت الذي صار الآن مقر
كبير رجال الدين . وقد نفّس عني قليلاً ما تذكرته من قول
شارسكان وقد زار المسجد سنة ١٥٣٦ حين رأى الكنيسة
وسطه : لقد « بنيت هنا أيراً كان يمكن أن يبني في أي مكان ،
وأفسدتم أيراً وحيداً في العالم ! »

والمسجد ومقر الخلافت يطل كلاهما على « الوادي الكبير »
التي لا تزال مياهه تجري في استحياء ! وقد عبرت القنطرة
على هذا النهر إلى الجهة المقابلة التي كانت العرب يسمونها
La Campgne أو الريف في الجهة المقابلة . وبهذا النهر تنتهي
المدينة القديمة .

بعد هذا خرجت من المسجد وزرت محلة اليهود على مقربة
جداً منه ؛ وبها منزل مسفير يحمل الآن رقم ١٨ رأى ابن
ميمون الفيلاف اليهودي الأشهر فيه النور ؛ وبها معبد من
مبائهم بنى بعد ابن ميمون ، وإن كانت الحكومة أقامت في
مدخله لوحة تذكارية لمرور ٨٠٠ عام على ولادته (١١٣٥-١٩٣٥م)
لذا لا تقام لوحة أخرى تذكارية لابن رشد معلم وشيخ ابن ميمون !
حسبي من زيارة قرطبة هذا المسجد ، وحسبي أنني عشت فيها
فترة لذيذة ومؤلة في جو إسلامي خالص حتى كنت أؤدي فيها
الصلاة في وقتها في أغلب الأحوال في الفندق الذي نزلت فيه .
أنتهى الآن وأنا على سفر إلى الجزيرة ، جزيرة طريف ، لعل
أستطيع منها العبور إلى طنجة وصراكش ، ثم أعود إلى الأندلس
لرؤية غرناطة والله المستعان .

محمد موسى